معاً ومما لا شبهة فيه انهُ فتح ابواباً جديدة للطب · وقد انمهُ مالبيجي باكتشاف الدورة الشعرية بعد وفاة هارفي باربع سنوات · وتوقف تقدم الفيسيولوجيا بعد ذلك الى ان نشأ هلر (١٧٠٨ — ١٧٧٧) فبحث في التنفس وتنبه العضلات وعمل الاجنة · ثم نبغ مورغاني وألّف كتاباً في مقرّ الامراض واسبابها وهو اول من بحث بحثاً منتظماً في علاقة الامراض بالتشريح المرضي · وجاء بعدهُ جنر واكتشف التلقيح بالجدري البقري فكأنهُ تنبأ بذلك عن وسائل المناعة التي صار لها شأن كبير في المستقبل

لامرك

ومذهب التحوّل

لولا دارون لبقي اسم لامرك مطوياً حتى اليوم · ولولا لامرك لم يكن دارون · فان كان دارون قد بسط مذهب التحوّل بسطاً وافياً وايّدهُ بالادلّة العلمية الطبيعية حتى حمل جمهور العلماء على التسليم بهِ اخيراً وحتى استحق ان يطلق عليهِ اسمهُ الاّ انّ لامرك سبقهُ بخمسين سنة الى هذه الفكرة بناء على ابحاث علمية طبيعية لم يسبقهُ احد اليها باعتراف دارون نفسهِ حتى يصحّ ان يعتبر ابا هذا المذهب ومؤسسهُ الاوّل · وان كان بين الاثنين اختلاف في النظر فهو فرقٌ تعليلي فقط · فلامرك اعتبر العادة والضرورة من الاسباب المغيّرة للاحياء والمحوّلة لها · واما دارون فجعلها الانتخاب الطبيعي في بقاء الاصلح · والحقيقة ان الاثنين مصيبان والاقتصار على رأي واحد من الرأيين ليس من الصواب في شيء · فان كان الانتخاب الطبيعي اشمل واعمّ فلا ينكر ما للعادة والتربية وجنس المعيشة من الامر البيّن في تغيير الاحياء · وكلاهما متفقان على ان للوراثة شأناً عظيماً في تثبيت صفات هذا التحوّل في النسل · وان كانت ادلة لامرك فيها دون ادلة دارون فالسبب بيّن من نقص العلوم الطبيعية في عهد لامرك بخلاف ما صارت اليهِ على عهد دارون

هذا من جهة حقيقة هذا المذهب العلية التي تجعل جميع الكائنات من احياء وغير احياء مرتبطة بعضها ببعض ومتحوّلة بعضها عن بعض · واما اذا اعتبرنا ما كان لهذا المذهب من الاثر الطيّب في نهضة العلوم الطبيعية وسائر معارف الانسان وتحوّل مجرى افكارهِ في مباحثهِ فاطبة لم يسع العالمَ ايفاء الرجلين حقّهما من الفضل · الاّ ان الاعتراف بهذا الفضل

تمثال لامرك

كثيراً ما يأتي متأخراً وقلما يتاح للمصلحين ان يستفيدوا من جهدهم في حياتهم وكثيراً ما يجازون على خير يسدونهُ شرَّ جزاء . وهم وان اسكرتهم لذَّة الشعور على الحقيقة فانستهم مصلحتهم الخاصة الاَّ انها لذَّةٌ مقرونةٌ غالباً بمرارة لا توصف . فان كان دارون بعد ان صادف مقاومات كثيرة في نشر مذهب التحول لاقى جزاء تعبهِ في اخريات ايامهِ ورأى العلماء حولهُ يؤيدونهُ والفلاسفة يقوّضون دعائم الفلسفة القديمة ويشيدون فلسفتهم على قواعد مذهبهِ والملوك تتفخر بضم رفاتهِ بعد رفاتهِ الى رفاتهم في مدافنهم الاَّ ان لامرك لم يلقَ في حياتهِ وبعد مماتهِ الاَّ نقيض ذلك فعاش في العزلة مقصيًّا منفرداً في تعليمهِ لا يجد من يطبع كتبهُ ولا من يقبل عليها فقيراً يكاد لا يملك ما يبلغ بهِ ولما توفي طُرحت رفاتهُ في الحفرة العمومية بين الفقراء والصعاليك

ومع ان دارون انصف لامرك في كتابهِ « اصل الانواع » وذكرهُ في مقدمة مؤسسي مذهب التحوّل الاَّ ان قومهُ الفرنسويين لم يحفلوا بكتبهِ ولم يحتفلوا بذكرهِ الاَّ من عهد قريب . فبينما كانت الامة الانكليزية تحتفل بعيد مرور خمسين سنة على كتاب دارون في اصل الانواع انتبهت الامة الفرنساوية وقامت تحتفل بعيد مرور مئة سنة على كتاب لامرك في « فلسفة طبائع الحيوانات » . فنصبت لهُ تمثالاً عند مدخل المكان المسمَّى عندهم حديقة النبات مثلتهُ فيهِ جالساً مفكرًا ويدهُ على خدّهِ كما ترى في الرسم المقابل ومثلتهُ على قاعدة التمثال أُمّي وبنتهُ امامهُ واقفة تعزّيهِ . ويروى انها كانت تعزّيهِ بقولها : « أبي سينصفك الخلف ويعظم ذكرك » !

ولد جان باتيست دي لامرك في بازنتن من اعمال فرنسا في اول اغسطس سنة ١٧٤٢ وتوفي في ١٨ دسمبر سنة ١٨٢٩ . وقد رشحهُ ابوهُ للرهبنة وادخلهُ احد اديرة اليسوعيين . ويكنهُ كان ميالاً الى الجندية فلما توفي ابوهُ هجر الدير والتحق بالجيش سنة ١٧٦١ وعمرهُ سبع عشرة سنة وذلك في اخر الحرب المعروفة بحرب السبع سنين وفي اول موقعة شهدها نال رتبة ملازم . ولما وضعت الحرب اوزارها كان قد ظهر بهِ ميل الى الموسيقى وعلم النبات فاخذ يشتغل بها في اوقات فراغهِ وهو لا يزال جنديا ثم عرض لهُ مرض الجأهُ الى ترك الجندية فقُطع لهُ معاش او بعبارة فرنك في السنة . ولما كان ابوهُ فقيراً ولم يترك ميراثاً لاولادهِ وكانوا احد عشر سوى قطعة ارض قليلة الثمن بيعت بعد وفاتهِ رأى لامرك ان يقصد مدينة باريس للبحث عن عمل يتعيش منهُ

فدخل في خدمة احد الصيارفة واخذ مع ذلك يدرس الطب وكان يسكن غرفة على

مطبخ احد البيوت فكان يرى منها الحوادث الجوية بسهولة فاخذ يراقبها وظن انهُ يستطيع ان يربطها بعضها ببعض ويستخرج منها دلالاتها ثم صار يصدر نتيجة سنوية بذلك صادفت رواجاً كبيراً عند العامة فصادرها نابوليون بامر عالٍ زعماً منهُ انها ضارّة . ثم تهجم لامرك على علم الطبيعة والكيمياء وعلم طبقات الارض وتكلّم فيها جميعها وذهب فيها مذاهب جديدة وهي ان كانت كثيرة الخطاء الاّ انها دلّت على ما فيهِ من حبّ الاستطلاع والبحث للوصول الى الحقيقة وانهُ ما زال حائراً لم يهتدِ الى الاستقرار على البحث الذي يميل اليهِ من طبعهِ . ثم حضر دروس النبات وهو تلميذ يدرس الطب فاخذ يجول في ضواحي باريس ويجمع نباتاتها و يدرسها بنفسهِ ونحا في ترتيبها منحًى خاصًّا كان يقول انهُ وحدهُ كاف لان يجعل المطلع عليهِ يسمي لك نباتات كل جهة من جهات فرنسا من مجرد وصفهِ لنباتها وظهر فيهِ حينئذٍ ميلهُ الحقيقي الى التاريخ الطبيعي . ولم يطل بهِ الامر حتى ألّف كتابهُ الشهير في نباتات فرنسا في ثلاثة مجلدات . وقد اعجب بوفون العالم الطبيعي الشهير في ذلك العصر بهذا الكتاب جدًّا و بذل مالهُ من النفوذ حتى جعل المطبعة الملكية تطبعهُ على نفقة الحكومة وتخصص دخلهُ بالمؤلف . فراج الكتاب ونفدت نسخهُ في زمن قصير . ومن ذلك الحين ذاع صيت لامرك حتى صار في مقدمة علماء النبات المعدودين . وقد عضدهُ بوفون جدًّا وادخلهُ في المجمع العلمي سنة ١٧٧٩ ثم استصدر لهُ امراً وانفذهُ بصحبة ابنهِ الى عواصم اوربا لزيارة متاحفها النباتية واحكام صلة المراسلة بينها و بين متاحف باريس فزار هولاندا والمانيا وهنكريا وتعرّف بكثير من علمائها

و بعد عودتهِ من سياحتهِ اخذ يشتغل قاموسهُ في علم النبات واتمّهُ في ثلاثة عشر مجلداً وكتابهُ في الانواع المصوّرة في اربعة مجلدات . وفي هذين المؤلفين الضخمين عاونهُ علماء آخرون ايضاً

ثم توفي بوفون ففقد لامرك بوفاتهِ اكبر نصير لهُ قبل ان يتم سلسلة ابحاثهِ في مبحثهِ الجديد في العلم كما دلّت عليهِ خطتهُ الجديدة في علم النبات وقبل ان تتنبه الانكار الى ان في طريقتهِ مصادرةً لا تقف عند حدّ لتعليم المجمع عليهِ العلماء في ذلك الحين وخاصةً في علم الحيوان . وحتى وفاة بوفون لم يكن للامرك وظيفة رسمية في متحف التاريخ الطبيعي . وخلف بوفون لابيلادري تخت وظيفة هذا وهي حافظ هيئة الملك فعهد بها الى لامرك براتب الف فرنك في السنة . ثم تزوّج وولد لهُ ستة اولاد ورغماً عن ارتفاع مقامهِ العلمي وارتقاء منصبهِ لم يفارقهُ عسرهُ المالي

ومن محاسن الصدف لمصلحة التاريخ الطبيعي ان الحكومة سمحت استاذ فرع من فروع علم الحيوان على غير استعداد سابق سوى ما فيه من دقة المراقبة وقوة الاستنتاج وحسن التطبيق فعهدت اليه بتدريس علم الحيوانات الدنيا فاطلق عليها طريقته التي استنبطها لتعريف النباتات وهو اوّل من اطلق على هذه الحيوانات اسم العديمة الفقرات وقد كانت قبله تسمى الحيوانات ذات الدم الابيض

ثم وجّه نظره الى درس بقايا الحيوانات القديمة في الارض ولم يكن درسها كعلم شيئاً مذكوراً في ذلك الحين فاخذ يدرس الاحافير ويقابلها بصور الانواع الحية حتى وضع علم الباليونتولوجية على اساس متين ووسّع النظر فيه لارتباط عالم الحيوان وهو هنا كما في عالم النبات وعلم طبائع الحيوان شاد للعلم الطبيعي بناء نفيساً واسسهُ على اساس متين ولا ريب ان اثمن مؤلفاته واجلها للفخر له هو كتاب « فلسفة طبائع الحيوان » الذي ألّفهُ سنة ١٨١٩ وجمع فيه نتيجة علمه الواسع واختباره الطويل ووضع به اساس مذهب التحوّل . وكما انهُ كان اثمنها للعلم واجلها للفخر كان اشأمها عليه فسبّب له جميع المتاعب التي عاناها في حياته

واول خطاب في ابحاثه الجديدة تلاهُ في المجمع العلمي اغضب زملاءهُ فلم يدعوهُ يتمهُ اما لانهُ عارضهم في آرائه الخاصة او لانهُ لم يعرف كيف يعرضها عليهم . فاضطر من ذلك الحين ان يعيش في دنياهُ وفي علمه عيشة العزلة وان يحصر تأملاته في نفسه

ولم يكن نصيبهُ من ذويه خيراً من ذلك فاولادهُ كانوا يعيرونهُ بانهُ لم يعرف ان يستفيد من مركزه وانهُ خسر بالمضاربات القليل الذي لهُ من المال وانهُ ترك عائلتهُ في الفاقة

على ان الذي اضرّهُ اكثر من كل شيء اراؤهُ الفلسفية التي جعلت كونيه العالم الطبيعي القدير في ذلك الحين خصمهُ الالد مع ان لامرك هو الذي اوصل كونيه الى مركزه في متحف التاريخ الطبيعي . وكان كونيه عالماً واسع الاطلاع واسع الحيلة فبلغ في المقام العلمي مكانة بوفون وفي مراتب الدنيا مرتبة الامراء فاغدقت الدنيا عليه مالاً ورتباً ونياشين حتى صار ذا كلمة نافذة في قصور الملوك كما كان في دور العلم . وفي التاريخ الطبيعي كان يفتخر بانهُ عالم وصفي يجمع الاشياء ويضمها في مقامها الطبيعي وكان يؤيد مذهب ثبوت الانواع ولا يقبل قول معارض في ذلك بينما كان لامرك يبحث سبل تأييد تغيرها ونشوئها ويضع اساس مذهب التحوّل

وقد اثر تعصب كونيه لمذهب ثبوت الانواع في زملائه فصرفهم عن النظر الى ما في سواهُ من الحقائق بل اثر في عامة الطلبة حتى ان لامرك الذي كان يلقي درسهُ بحرّية تامة

كان كما اخذ في شرح نظرياته الجديدة يرى الطلبة يخرجون من حلقة الدرس نافرين . وكان يضطر ان يطبع كتبهُ الحاوية لمبادئهِ الحديثة على نفقتهِ الخاصة خلافاً للمألوف

وقد انتهت حياتهُ بحالةٍ تعسة جدًّا وتمنى وهو على هذه الحالة من الفقر فغاب عنهُ مساعدهُ « لاتريل » في القاء دروسهِ عدة سنين حتى لا يحرمهُ مرتبهُ القليل . وقضى بقية عمرهِ في العزلة لا يؤنسهُ الاَّ بعض خلَّص الاصدقاء القادرين

وكان لهُ بنتان كانتا اكبر عون واكبر عزاء لهُ في شيخوختهِ احداهما تساعدهُ في اتمام كتابهِ التاريخ الطبيعي للحيوانات العديمة الفقرات والاخرى عكازة تسند خطاهُ في عماهُ . ولما رزح تحت عبء المرض ولازم مخدعهُ لم تفارقهُ لحظة حتى لم تستطع ان تقابل بينها نور الشمس بعد ان أطلقت حريتها بوفاتهِ . وكانت من الفقر في حالة حركت شفقة البعض فجعلوا لها وظيفة في منبتة الحجف للحصول على شيء تتبلغ بهِ من العيش . وقد تقدم كيف دفن وطرحت رفاتهُ في الحفرة العمومية

ولما كان لامرك عضواً عاملاً من اعضاء المجمع العلمي وكان كوفيه سكرتير هذا المجمع كلَّفوهُ ان يؤبِّنهُ حسب العادة المألوفة . ولكنهُ لم يشفق عليهِ بعد موتهِ كما انهُ لم يشفق عليهِ في حياتهِ فسلقهُ سلقًا في خطاب بقي تأثيرهُ في الجمهور زماناً طويلاً . ولم يطبع هذا الخطاب الاَّ بعد سنين من تلاوتهِ وبعد ان حُوِّر تحويراً كبيراً ومع ذلك فقد بقي ما فيهِ من الانتقاد المر والتقريع الشنيع ما كفى لان يدل على ذكر لامرك بجانب النسيان سنين عديدة بل ان يجعل اراءهُ موضع السخرية والاستهزاء

فكوفيه هذا والذين جاءوا بعدهُ كان بلا شك سبباً لتأخير انتشار مذهب لامرك خمسين سنة حتى قام دارون سنة ١٨٥٩ ووضع كتابهُ « اصل الانواع » فاحيا مذهب التحوُّل بعد ان ضمهُ جمود العلماء واحيا ذكر لامرك بعد ان أنساهُ تحاملهم عليهِ وقامت امة الفرنسيس تحتفل برجلها المتهن في حياتهِ بعد مئتين من وفاتهِ فألَّفت فيهِ كتاباً جامعاً عنوانهُ لامرك مؤسس مذهب التحوُّل وحياتهُ واعمالهُ طبع سنة ١٩٠٨ ونصبت لهُ التمثال المشار اليهِ آنفاً تخليداً لما قالتهُ ابنتهُ وهو ان الخلف سيعرف قدرهُ وينصفهُ من السلف

الدكتور شبلي شميل